مجلة الليبي

The Libyan

شهرية ثقافية تصدر عن مؤسسة الخدمات الإعلامية بمجلس النواب

السنة الخامسة العدد 54 / يونيو 2023

التي لا يملكها الغزاة ..

أفكار وتأملات حول رواية أحمد رفيق عوض ..

الحياة كما ينبغي..

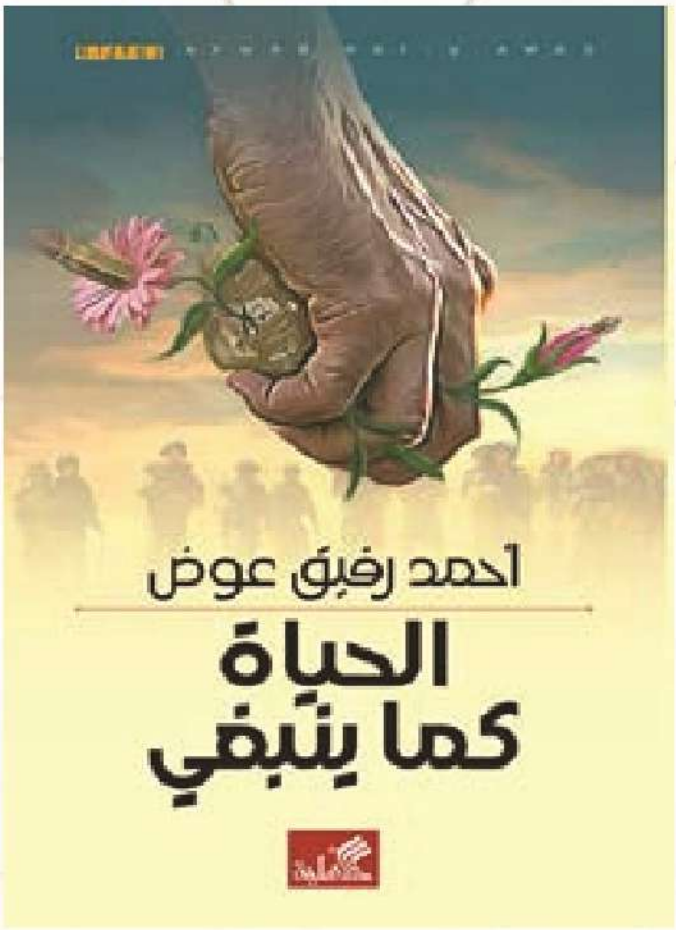

فراس حج محمد. فلسطين

• **العنوان وإحالاته المعرفية:**

ذكّرني عنوان هذه الرواية بهدف الفلسفة عند الفيلسوف الفرنسي «لوك فيري» صاحب كتاب «أجمل قصة في تاريخ الفلسفة»، في هذا الكتاب يؤكد «فيري» أن الفلسفة تدور حول هدف عظيم، وهو كيف يجب أن تكون الحياة «حياة طيّبة وجديرة بأن تعاش». ببساطة ودون البحث عن التعقيدات. ورواية الدكتور «أحمد رفيق عوض» تتناصّ مع هذه الجملة الفلسفية لتقول بصراحة وببساطة إن «الحياة كما ينبغي» هي الحياة في فلسطين القائمة على هدف سامٍ؛ هو التحرر من العبودية ومن كل مظاهرها؛ من مطاردة، وسجن، وقتل، والارتباط بالأرض وتقديرها حق قدرها، لذلك فالطريق واضح لمثل هذا التحرر وهذا التقدير. إنه طريق المقاومة، هكذا بدأت الرواية وهكذا انتهت نهاية مفتوحة على أفق المقاومة، وما بين العنوان والنهاية تفاصيل روائية وفكرية متعددة، تؤكد هذه المقولة.

يفترق الروائي؛ أي روائي، عن الفيلسوف؛ أي فيلسوف، في أن الروائي شخص مشخصاتي بالمعنى الحرفي، أي أن عمله تمثيلي، درامي تقمصي، تجسيديّ، يبحث للفكرة المجردة التي هي مجال عمل الفيلسوف- يبحث لها عن حبكة وحكاية وحدث، ليصنع دراما يتصور فيها أن الفكرة الفلسفية الذهنية المجردة هي ممكنة الحدوث، ضمن تصور روائي سردي ما، فإذا كان الفيلسوف يتصور ذهنياً ويمنطق الفكرة ويبرهن على صحتها بشكل مجرّد، فالروائي يشخصها في حيوات متصورة لتكون أكثر قرباً للقارئ، فينزلها من عليائها الذهني العام إلى الواقع العملي، فيرى القارئ أن الفكرة المجردة ممكنة الحدوث.

كما يحيل العنوان كذلك إلى رواية الكاتبة الإماراتية ظبية خميس «الحياة كما هي». عدا ما بين الاسمين من تناص عنوانيّ جزئيّ، تلتقي الروايتان عند فكرة واحدة؛ «الحياة التي ينبغي على المرء أن يعيشها»، مع أن كلتا الروايتين اتخذتا حكايتين مختلفتين لتشخيص الفكرة وتجسيدها، فشخصية «مهيرة بنت عبيد» في رواية ظبية خميس كانت تبحث عن حياة جديرة بأن تعاش وتناضل من أجل ذلك ضمن محددات واقعية وفكرية معينة؛ متصلة بنضال المرأة المجتمعي لتحوز الحياة التي تريدها، التقت مع شخصية «راشد المحمود» الذي كان هو الآخر يناضل من أجل أن تكون «الحياة كما ينبغي»، أو «كما هي»، ولا يعني عنوان رواية ظبية خميس الرضا بالحياة «كما هي»، بل كانت تسعى لتكون «الحياة كما هي الحياة» التي يجب أن تعاش، ويكون لها معنى، وتحقق فيها الشخصية كينونتها الإنسانية الخاصة بها بعيدة عن تحكم الغير، وكذلك كانت شخصية «راشد» باحثة عن التحرر والانعتاق، فهما روايتان عن النضال الإنساني من أجل الحرية.

• عضوية الأشجار ولحمتها السردية:

هذه الفكرة «الحياة كما ينبغي» التي أضحت عنوانا لعمل روائي، تشكل عصب السرد كله عند «أحمد رفيق عوض»، فيختار لها الروائي عناصر خاصة به لتشخص الفكرة؛ بُنيت الرواية من عدة فصول، وجعل لكل فصل عنوان شجرة، فحضر من الأشجار: الزعرور، الصنوبر، البلوط، القيقب، الصبار، الرمان، اللوز، العبهر، الأسكدنيا، الحور، الزيتون، الجرانك، البطم، الليمون، الدفلى، الزنزلخت، الجوز، القندول، العنب، الميرمية، النخيل، البرتقال، التبغ.

هذا الحضور للأشجار المتنوع كان مدركاً بشكل بنيوي عميق في الرواية بحيث تعلقت البنية السردية فيه، تعلقاً عضوياً، فقاربت هذه الأشجار أن تكون «أبطالاً»، بل لعل المسألة كانت في وعي الروائي أن أشجار البلاد كأهلها، تستحق البطولة والسرد، كما يستحقهما أهل البلاد؛ لذلك احتلت مكانة مميزة من الكاتب عندما أهدى الرواية إلى «أشجار البلاد وأهلها». وأبرز السارد شجرة الصنوبر التي وصفت بأنها شجرة عدوانية وعدائية، فكانت نقيضاً للشجر الفلسطيني، أحضرها المحتل «حتى لا يرى ولا يتذكر ما هدم وما دمّر»، وشارك شجرة الصنوبر في العدائية شجرة «الكينا» التي جاء بها المحتل أيضاً من أجل «شفط المياه وتجفيفها، أشجار المحتل ضخمة وبلا ثمر وذات أهداف مضمرة».

لقد تغلغلت الأشجار في حياة الفلسطيني، فكانت موجودة في الطبيعة، وفي ساحات البيوت وحولها،

وهي مصدر غذاء، فأغلب الأطعمة التي عرضتها الرواية كانت من منتوج الأرض الفلسطينية الموصوفة بأنها أرض اللبن والعسل، بالفعل لقد فاضت لبناً وعسلاً، فكان منها يتشكل العشاء الفاخر والفطور الملوكيّ، ليس فقط في الحالات الطبيعية، بل كانت الأشجار غذاءً حاضراً لراشد المحمود في فترة تخفيه بعد «عملية السهل». هذه العلاقة بين الفلسطيني والشجر كانت واضحة تماماً، وصفها السارد بقوله: «يا للشجر، هن النساء والشعر والحياة الرخوة الباذخة، ليس هناك من حياة حلوة دون شجر». هذا الانحياز للشجر أحد تجليات مقولة الرواية الأساسية «الحياة كما ينبغي». فأينما تكن الأشجار توجد الحياة المكتملة، وكأن فلسطين هي جنة الله على الأرض بكل هذا التنوع في الأشجار وأزهارها وعطورها وأثمارها، وجنّة الله العلوية الموعودة هي ذات شجر ملتفّ، كثيف، متنوّع، مدهامّ.

إذاً، فالحياة كما ينبغي أن تعاش بشكل طبيعي يجب أن تكون الأشجار حاضرة فيها، غذاء أولا وزينة ثانية، وليس هذا وحسب، بل اكتسب بعض الشجر وظيفة أخرى، وهي الأمان، لتكون الأشجار غذاء وأماناً؛ لتطعمهم من جوع وتؤمّنهم من خوف. فقد احتمى بطل عملية السهل بشجرة الزعرور وشجرة البلوط، وحمتاه في أحلك الظروف، حمتاه من «صليات» رصاص الطائرة مرتين، ووفرتا له ملجأ آمناً طوال فترة تمركزه في منطقة العملية. تذكر أشجار الرواية بنخلة السيدة مريم العذراء، إلا أنها امتلكت إضافة إلى ما في النخلة من فائدة طعام، الملامح الجمالية، فيتسلل إلى النفس إحساس أن كل شجرة في البلاد هي نخلة المسيح عليه السلام.

يعرف «راشد المحمود» الثائر ضد الظلم والإهانة

أهمية فعل الزعرورة معه، فيؤنسنها، بل إنها تتعاطف معه عندما تقول له: «كل ما عندي هو لك يا حبيبي»، على الرغم من أنه لم يستطع سماعها كما جاء على لسان السارد إلا أنه قد شعر بأن هذه الشجرة تودعه في رحمها وتبعده عن مرمى النيران. وليس فقط شجرة الزعرور، بل إن لشجرة البلوط النصيب ذاته من الأنسنة، لقد كان لها الفعل ذاته، طعاماً وأماناً، فقد تفقدها بعد الجولة الثانية من «صليات» الرصاص، كما يتفقد المرء صديقه، فرسم السرد مشهداً وجدانياً وراشد يحاور البلوطة بعد هذه الصليات، فيخاطبها قائلاً: «هل أصبت أيتها الشجرة العجوز؟». وليست هاتان الشجرتان فقط، بل كثير من هذه الأشجار لها هذا النصيب من الأنسنة والجمال، مبثوث في كل فصل من فصول الرواية.

امتد هذا الحضور الفاعل للأشجار في كل البنية السردية، كما أسلفت، وكان لهذه الأشجار حضور في كل مكان يوجد فيه الفلسطيني، بحيث تضيء الرواية على حب الفلسطيني للزراعة والاهتمام بتنسيق الحدائق المنزلية وزراعتها بالورد والشجر، وتبين الرواية انفعال الفلسطيني بجمالها، ما كان يغيظ رجل المخابرات، وأعوانه من الجنود الذين كانوا يعتدون على الشجر كما يعتدون على البشر، وهذا واضح جداً في الرواية في عدة مواضع، كما هو واضح عداء المحتل لكل ما هو أخضر في البيئة الفلسطينية، فيدمرها كما يدمر البيت، ويقتلع الشجر، كما يقتل البشر، سواءً بسواء. هذا الاهتمام من الفلسطيني بالورد جمالياً، وبالشجر من أجل الغذاء يؤكد أصل الفلسطيني الزراعي الذي لخصه الشاعر «إبراهيم طوقان» بقوله: «أعداؤنا مذ كانوا صيارفةٌ ونحن مذ هبطنا الأرض زرّاعُ». ولعل في هذا أيضاً رد على الادعاءات الصهيونية التقليدية التي رافقت مشروع الاستيطان الصهيوني لهذه الأرض، ونشوء ما يعرف بالكيبوتسات، فتوحي الحركة الصهيونية أنّ أصولها زراعية، وأنها حولت فلسطين القاحلة إلى أرض خضراء.

لم تكن الأشجار وحدها هي الفاعل الأساسي في هذه الرواية، بل أيضاً اشتركت عناصر أخرى لتدعم وجود الفلسطيني في معركته مع المحتل، فكما كانت شجرتا الزعرور والبلوط غذاء وأماناً لراشد المحمود كانت أيضا السحلية التي أفسحت له في المكان ليكونا سوية في شق البلوطة عند انهمار «صليات» رصاص المروحية. فالفلسطيني ابن لهذه الطبيعة، وهي أمّه، تعرفه ويعرفها؛ لذلك ثمة ظروف طبيعية ساعدت بطل عملية السهل على إنجاح عمليته العسكرية، على الرغم من أنه كان متشائماً من حدوث ذلك أو متوجساً، فالمطر الغزير الذي سبق لحظة التنفيذ واستمر أياماً كان عاملاً مساعداً وقوياً لنجاح هذه المهمة، فقد وفرت له الطبيعة غطاء كاملاً بهذا الجو العاصف والظلام الكثيف، حتى عندما اقترب الفتيان من مكان اختبائه وأوشكوا على اكتشاف مكانه، أنقذه عش الحجل، هذه الظروف هي نفسها التي ساعدت على انتقاله متخفياً من منطقة العملية إلى مخيم جنين، بالمقابل، لقد كانت هذه الظروف وبالاً على المحتل، فقد وصف عميرام- أحد رجال مخابراتهم- ذلك بأنه «وقت لعين».

يعيد الدكتور «أحمد رفيق عوض» للطبيعة الفلسطينية أهميتها وفاعليتها، وجعلها عنصراً مساعداً للمقاومة، فلم تكن مهمتها القتل كما هي الصحراء العربية في رواية «رجال في الشمس»، بل كانت حارساً أميناً

للمقاوم، وربما لأن الصحراء عند «غسان كنفاني» في هذه الرواية كانت عربية، فقد كانت قاتلة، لقد سبق للدكتور «عادل الأسطة» أن تحدث عن هذا الموضوع؛ موضوع تعاطف الطبيعة مع الفلسطيني في مقال له نشر في صحيفة الأيام بعنوان «زكريا الزبيدي وإخوانه: «قراءة غسان كنفاني في زمن مختلف». (بتاريخ: 2021/10/10) أشير إليه هنا لمن أراد أن يستزيد في هذه المسألة.

أما الطبيعة الفلسطينية في رواية «الحياة كما ينبغي» كما قال «راشد» في حقها: «هذا الجمال ليس يسلمني إلى أعدائه»، ولذلك فهو دائما يستمدّ من هذا الجمال الطبيعي المتجلي في كل ما حوله القوة والطاقة الإيجابية، وكان يرى أن «الشعور المبهج بالنهاية السعيدة كان من القوة بحيث رغب في الغناء». أي نشوة هذه التي تدفع مطارداً لأن يغني وهو في قمة السعادة لولا هذا الشعور العظيم بالارتياح، وقد عزز لديه البصيرة فيتنبأ بنجاته، كما حدث فعلاً؟

• المقولات السياسية وأثرها في توجيه السرد:

مقولة المقاومة، والحس الجماعي، والأمني، هي المقولة الأولى التي تستند إليها هذه الرواية، لكنها تعدتها إلى الرؤيا السياسية، فلا بد من الرؤى السياسية في رواية كتبها أكاديمي، مشتغل بحقل العلوم السياسية، ويعمل على التحليل السياسي، ومتابع عن كثب للشأن العام، وخاصة الوضع الفلسطيني الداخلي وتعقيداته، أو واقع كيان الاحتلال ومنطلقاته، لذلك فأحمد رفيق عوض المحلل السياسي كان حاضراً وبقوة في هذه الرواية إلى درجة تخاف معها أحياناً أن يتحول السرد الروائي إلى مجرد تحليل سياسي خال من «السردية»، فقد علا صوت السياسي أحياناً وسيطر على صوت السارد، ولم يعد السارد مجرد سارد عليم يقصّ الأحداث من وجهة نظر محايدة جداً، كما يقول «رولان بارت»، بل كنت تقرأ تحليلاً سياسياً مكتمل الأركان للأكاديمي أحمد رفيق عوض. هل أثر هذا التحليل السياسي على بنية الرواية؟

أظن أن العمل الأدبي، مهما نأى صاحبه عن أفكاره الخاصة، وكان حريصاً على ألا تنفلت منه بطريقة مباشرة في السرد إلا أنه في لحظة ما سينزلق إلى شيء من هذا. ربما لن يكون الأمر مخلاً إلى درجة «العيب السردي» الفاضح، بدعوى أن الفن السردي الروائي قادر على أن يستوعب التحليل السياسي والجنائي والتحليل الطبي والنقدي والتحليل النفسي، بل إنه يستوعب ويهضم في أحشائه فنوناً أخرى كاملة كالرسالة والخاطرة والقصيدة والمشاهد المسرحية والسينمائية. بل ينظر إلى أن الرواية يجب ألا تقف عند حدود سرد حكاية بشخوص ما، بل عليها أن تكون لها شخصيتها الفكرية أيضاً، ولها مقولاتها الفلسفية والثقافية، فالرواية لم يعد بالإمكان أن تقتصر على أن تكون فنا امتاعياً فقط، بحكاية وحبكة وأحداث، بل لها مهام أخرى أكثر أهمية، كالتحليل والتحريض والتثقيف، وتأكيد وجهة نظر مؤلفها في الحياة والقضايا السياسية والفكرية الكبرى، لذلك لا بدّ من أن تحمل الرواية وجهة نظر كاتبها، فهو لم يكتب ما كتب من أجل التسلية.

لقد جاءت هذه الرواية بمهمة التحليل السياسي للآخر المحتل في خطين متوازيين؛ السياسة العامة للاحتلال، وتحليل السلوك الشخصي السياسي لشخصية «أبو السعيد»، ضابط المخابرات. برزت شخصية

أبي السعيد كضابط مخابرات عنيف في تعامله مع الفلسطينيين، لكنه كان يعاني من اضطرابات نفسية جراء هذه العلاقة إلى درجة أن أرواح الفلسطينيين قد تلبسته، وقد دفعته أخيراً إلى أن يقتل زوجته التي وشت به وينتحر.

كان هذا الضابط في حياته الخاصة مع ابنه «زلمان» فلسطينيّ السلوك، هل حلت عليه لعنة الفلسطيني، أم أنه وقع في غرام الضحية أو سحرها؟ «إنه يعرف تأثير الفلسطينيين عليه، تأثير الضحية الأسر»، على ما يبدو كان يعاني مما يعرف بمتلازمة «ليما». لقد قتل أبو السعيد كثيراً من الفلسطينيين وعذب الكثيرين منهم تعذيباً وحشياً، وداهم منازلهم واعتقلهم، وأشرف بنفسه على هدم منازلهم، وسمع أوجاع نسائهم وعاين حزن الشيوخ والأطفال، وتشفّى فيهم، إلا أن هؤلاء الفلسطينيين غدَوْا يقيمون تحت جلده، فيرغب أن يكون اسم ابنه «سلمان» وليس «زلمان»، وكان يستمتع بشرب الشاي بالمرمية، ويحتسي القهوة العربية، ويدخن الأرجيلة، ويتحدث العربية بلهجة فلسطينية، ويغني أغاني الفلسطينيين، ويتمثل بأمثالهم، لقد كان فلسطينياً حقاً، وتم التحقيق معه داخل المؤسسة الأمنية التي يعمل بها تحت هذه التهمة؛ تهمة «التعاطف مع الفلسطيني». يقول له رئيس لجنة التحقيق: « زوجتك ذكرت أنّك تسكر كثيراً وتبدأ بالثرثرة والبكاء والاعتذار للفلسطيني، وأنك تكتب بالعربية، الأمر الذي يبعث حقّاً على القلق»، فحالة اللاوعي التي يمرّ بها «أبو السعيد» وتجعله يعتذر للفلسطيني، تقوم على النقيض من حالة الوعي التام المدرك في تعذيب الفلسطيني بوحشية، ما يشير ربما أيضاً إلى نوع من الانفصام في الشخصية والوقوع في حبائل الاضطراب النفسي الحادّ.

لقد شكل «أبو السعيد» بشخصيته المضطربة هذه صوتاً آخر، إذ لا يرغب في أن تتعامل دولته مع الفلسطينيين كمشكلة أمنية فقط، بل يجب أن تحل كمشكلة سياسية، لأنه لا حل لدوامة العنف إلا بالحل السياسي، فالمقاومون الجدد المتحصنون في مخيم جنين هم صنيعة عنف الاحتلال، والأجيال القادمة من الفلسطينيين لن تُسلّم بالحل الأمني، فتأكل وتعيش وتعمل فقط دون أن تشعر بالكرامة والعزة الوطنية، لاسيما أن هؤلاء المقاومين «مهمشون، خائبو أمل، واكتشفوا خديعة كبرى، رأوا عنف المحتل، وتهميش الواقع وفراغ المرحلة». هذه هي الدوافع السياسية الواقعية التي يراها «أحمد رفيق عوض» تدفع الفلسطيني للمقاومة. إنها- نوعاً ما- تتساوق وتتفق في عمق تحليلها مع «البراغماتية السياسية»، وتنطلق من الواقع، وليس من المفاهيم الأيديولوجية الثابتة في النظر إلى المحتل، وإلى تطهير فلسطين الكامل من اليهود المحتلين، فثمة إمكانية للتصالح مع هذا المحتل بناء على معطيات الواقع وشروطه الموضوعية، كما تومئ الرواية. فتتجه مقولات الرواية إلى شروط تحسين هذا الواقع، وليس رفضه كاملاً.

هذه الرؤيا يطرحها «أبو السعيد» كذلك، ويعلنها في الاجتماعات الأمنية، ويكاد يلتقي فيها مع السارد والكاتب أو بعض الشخصيات المقاومة الذين يرون أنه لا بد من حل سياسي، وأن السبب في أعمال العنف هذه هو فشل عملية السلام، وأن المحتل هو الذي يدفعنا لأن نقوم بما نقوم به من أعمال، فقد جاء على لسان «علي أبو علي» وهو يحاور أبو السعيد ما نصه:

«لم نعد نعرف ماذا تريدون، وقّعنا معكم اتفاق سلام كان يمكن أن يؤدي إلى انطلاقة». فنياً من يتحدث هو شخص غير أحمد رفيق عوض، لكن هذه الشخصية من باب آخر تمثل أفكار الكاتب نفسه، تلك الأفكار التي وزعها على شخصيات رواياته؛ كونه صانعاً للعمل الروائي، ومحدداً لكل عنصر من عناصره دورا لتجسيد الفكرة التي يريدها كما سبق وذكرت أعلاه. لقد بدا الكاتب من خلال روايته متفقاً على حل ما؛ سلميّ مع المحتل، وعليه فإن المقاومة هي بالفعل لتحسين شروط التفاوض، وكما يقال بلغة السياسة فإن البندقية حمار السياسي، وأن كل حرب لا بد من أن يعقبها عمل تفاوضي، وهذا ما عبرت عنه الرواية خلال حديث المقاومين الذين رأوا أن عمل المقاومة عمل تراكمي للبحث عن مكاسب سياسية. وبذلك تطمح الرواية عبر مقولتها السياسية عن «الحياة كما ينبغي» ضمن هذا الأفق من ممكن السلام مع المحتل، وبناءً على ذلك فإن ظاهرة المقاومين الجدد في مخيم جنين يجب أن يبحث لها عن حل سياسي وليس عبر الحل الأمني، فقد فشل الحل الأمني كما قالت الرواية؛ فبعد أن تم تدمير المخيم عام 2002، جاء أطفال الشهداء الذين شهدوا دمار المخيم ليكونوا مقاومين اليوم بعد عشرين سنة من الكارثة.

انتهت الرواية بتأكيد المقاومة واستمرارها عبر شخصية «راشد المحمود»، تلك المقاومة التي تركزت في المخيم الموصوف بأنه «عش الدبابير»، أملاً في تحسين ظروف الحياة ضمن الفهم الأول للمقاومة، وهو البدء من جديد، «كأن كل ما سبق لم يكن». ولكن السؤال السياسي: هل تستطيع المقاومة أن تبدأ من جديد لتكون «معركتها على الوطن كله لا على أجزاء منه»؟ أرى أن في الأمر رومانسية حالمة بعد كل ما شخّصته الرواية من عمل عسكري متمثلاً بعملية السهل، فنجاح عملية عسكرية فردية كعملية راشد المحمود لن تجعلها حالة يمكن تعميمها على كل عمل عسكري فردي يصاحبه حسّ أمني وجماعي، هناك ما نحتاج إليه أكثر من ذلك لتحقيق مقولة الرواية الأساسية «الحياة كما ينبغي»، ببعدها الفلسفي كما طرحه «لوك فيري»، ولكن علينا أن نظل في محاولة لعل بعضا من الوقائع تتغير على الأرض، وأما إذا لم يتغير شيء، فسنظل نعيش الدوامة ذاتها، وسيسقط مزيد من الضحايا من الطرفين إذا لم يفكر الطرفان بحلّ يخرج منه الشعبان بأقل الخسائر، هذا أقصى ما يطمح له الدكتور أحمد رفيق عوض في رواية «الحياة كما ينبغي».

ويظل السؤال قائماً بناء على هذه القراءة السياسية للرواية: «هل فعلاً هذه هي «الحياة كما ينبغي» التي ينشدها الفلسطيني على أرضه ليقبل بالتعايش مع من قتله وشرده وهدم بيته واحتل جميع فلسطين من بحرها إلى نهرها؟ لعلي أكون مخطئاً في هذه النتيجة، لكنها قراءة- على ما أظن- محتملة وتدفعني لأتوجس من المستقبل، ومن مواقف قادته وسياسييه ومثقفيه، ومن مواقف مقاتلي الشعب وصانعي قراراته المصيرية، إذا كان هذا هو السقف المأمول الوصول إليه، ودفعنا من أجله آلاف الضحايا، أو كما يسمون بلغة المقاومة «شهداء» و«جرحى» و«معتقلين».